بسم الله الرحمن الرحيم

مركز الأبحاث في السيرة وتراثها الأندلسي المخطوط
Centro de Investigación La Sira

مركز الأبحاث في السيرة وتراثها الأندلسي المخطوط
القسم التعليمي
أكاديميـة السيرة النبوية

الدبلوم العام في السيرة النبوية
الفصل الأول
مادة "المدخل إلى علم السيرة النبوية"

مرجع القراءة البحثية (3)

من موجبات العناية النقدية بالسيرة النبوية

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله.

وبعد، فإنه لا يخفىٰ فضلُ العناية بسيرة النبي صلىٰ الله عليه وسلم عامة، وتوقف السداد في مقال العبد وعمله وحاله علىٰ معرفة هديه المنيف وأحواله الشريفة؛ كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي صلىٰ الله عليه وسلم؛ فيجب علىٰ كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يَخْرُج به من عداد الجاهلين به؛ ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم).[1]

ولما كانت السيرة النبوية بهذا القدر الأعلىٰ، والمحل الأسنىٰ لزم تجديدُ الاحتفال بها علىٰ نمط نقدي؛ يستخرج منافعَها كافةً، لا سيما من جهاتٍ اندثر رسمُها في مؤلفات السيرة النبوية الحديثة أو كاد؛ مع أن إظهارَها وبناءَ التصنيف في هذا العلم الشريف عليها منقبةٌ له جليلة، ومذهب في صيانته غاية في السداد.

وبيان ذلك بأمرين؛ أسوقهما علىٰ جهة الاختصار حثًّا للباحثين علىٰ استثمارهما، واتخاذهما منطلقين لتجديد الاشتغال بعلم السيرة النبوية:

الأمر الأول :إبراز دلالة السيرة النبوية من جهة الاصطلاح؛ لأن مصطلح (سيرة) لم يصرف إليه من العناية والتبيين، واستخراج الحد ما يكفي، ويروي غليل الباحث ويشفي، مع أن غيره من المصطلحات التي ينمىٰ معها إلىٰ نسب واحد قد أصابها من ذلك حظ عريض تقييدًا وتحريرًا وتعليلا؛ كالحديث، والسنة، والأثر، وغيرها.

فمصطلح (السيرة) لم أجد أحدًا من أهل العلم المحدثين درسه، ولبث عنده؛ فبيَّن مخرجَه الدلالي، ومناسبتَه لما يُراد به عند الإطلاق، ووجوه تميزه وتفرده، والفروق بينه وبين ما يوهم اتحادَه معه من المصطلحات، مصيره - بالنظر إلىٰ كل ذلك : - أيعد مصطلحًا ذا نسب معرفي خاص كسائر المصطلحات العلمية المستقلة؟...

وهذه المسائل لم يفت المتقدمين من أهل العلم ذكرُها وتقريرها؛ لكن علىٰ نحو من الإجمال يستدعي التفصيل، والتحرير، والإبراز، والإثارة؛ لا سيما وأن لمصطلح (السيرة) من الخصائص ما يرفعه إلىٰ درجة التميز والاستقلال عن مصطلح (الحديث).

بل لا يزال كثير من خاصة طلبة العلم - فضلا عن عامتهم - يحسبون أن حد السيرة لا يشتمل علىٰ أكثر مما يشتمل عليه حد الحديث رواية ودراية، وأن غاية ما يميزه أن السيرة وصف لحياة النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأحواله من الميلاد إلىٰ الوفاة، وعد مناقبه وخصائصه.

وفي هذا من الغمط ما يسلب هذا العلم شطر حقيقته، ويعطل مقصده، فالذي يجمعه بعلم الحديث - من جهة الرواية - معلوم، لكن تعليق دلالته - من جهة الدراية - علىٰ التنويه بالشأن النبوي الأجلّ خاصة لا يتضمنه كل حديث، ولا صلة له بالتشريع إلا من هذا الوجه.

كما أن قصر تاريخ سيرة النبي صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ ما ذكر فيه غمط أيضًا، ومن أدلته قوله صلىٰ الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن ميسرة الفجر رضي الله عنه: (كنت نبيا وآدمُ بين الروح والجسد).[2]

الأمر الثاني :ما يلزم المشتغلَ بالسيرة النبوية من التحقيق صيانةً لمقام هذا العلم، وحذرًا من تضييع مقاصده، وأعظمها حفظ حقوق النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، وذلك لا يقع بمجرد الذكر والإثارة؛ فهذا يجيده كل من حصَّل مصنفًا من مصنفات السيرة.

ومما ينبغي الوقوف عنده من هذا الوجه:

أ – أن السيرة النبوية لا تقل عن علم الحديث فيما استحق من العناية النقدية، وواكب التصنيف فيه من تمحيص الأسانيد صيانة للمرويات؛ فوصول كل منهما من مخرج واحد هو النقل، لذا فهما في لزوم اعتبار الإسناد والتشدد في اشتراط صحة المروي سواء.

ب – أن الغاية من تمييز صحيح الحديث من ضعيفه اتقاء الكذب علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم حفظًا لمصدر التشريع؛ وما يعني الحديثَ من هذا الوجه يعني السيرةَ أيضًا؛ بل في تعلق موضوع علم السيرة بمقصد التنويه بشأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم خاصة خطورة أشد؛ لما يترتب عليه أحيانًا من الاستهانة بالسند تعلقًا بحال التعظيم الواردة في المتن، وهذا ديدن كثير ممن صنف في الفضائل النبوية، والخصائص، وأعلام النبوة.

فرب متساهلٍ جعل ذريعةً لتساهله كمالَ أهلية النبي صلىٰ الله عليه وسلم للتكريم بكل فضيلة أو خارقة رويت في حقه؛ لما له عند ربه من مرفوعِ الذكر ومحمود المقام، لكنَّ في تحريمه صلىٰ الله عليه وسلم الكذبَ عليه الحدَّ الفاصل بين تعلق مشروع؛ وسيلته فضل ثابت في حقه حقيقة، وتعلق غير مشروع؛ وسيلته فضل مزعوم يلزم دفعه والاستغناء عنه.

ولا يخفىٰ أن رضىٰ المحبوب ركن محبته الأعظم وشرط صدق مدعيها؛ بل هو غايتها، فإذا كانت سبيل محبته ما يكرهه – كالكذب عليه – استحال رضاه سخطًا؛ فكذب المدعي، لذلك عرَّف القاضي عياض رحمه الله محبة النبي صلىٰ الله عليه وسلم بقوله: (مواطأة القلب لمراد المحبوب؛ يحب ما يحب، ويكره ما يكره).[3]

ولأجل هذا قال ابن عباس رضي الله عنه في زمنه: (إنما كنا نحفظ الحديث والحديث يحفظ عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فأما إذ ركبتم كل صعب وذلول فهيهات)[4]

قال الإمام النووي رحمه الله: (أصل الصعب والذلول في الإبل؛ فالصعب: العسر المرغوب عنه، والذلول: السهل الطيب المحبوب المرغوب فيه، فالمعنىٰ: سلك الناس كل مسلك مما يحمد ويذم. وقوله (هيهات) أي بعدت استقامتكم، أو بعد أن نثق بحديثكم) [5]

فلو لم يكن في نقل الضعيف واعتماده من البلية والهلكة إلا طرحُ اليقين تعلقًا بالظن؛ لكفىٰ به رزية، فكيف إذا صار بدلا من الصحيح في تأسيس قواعد الدين...؟

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

الهوامش

[1]زاد المعاد في هدي خير العباد 1 / 69 – 70.

[2]سلسلة الأحاديث الصحيحة: رقم 1856.

[3]الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ بشرح ملا علي القاري: ص 53.

[4] أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء (1 / 81 نووي).

[5] شرحه علىٰ صحيح مسلم 1 / 80.